التناص القرءاني في ديوان " اللؤلؤة " لعثمان لوصيف

أ. عبد الرحمان بن عمر

جامعة حمه لخضر- الوادي

الملخص :

لا يزال القرءان الكريم ذلك النص المعجز ببلاغته وفصاحته وسحره وبيانه، وقد كان له وجود واضح وبارز في شعر عثمان لوصيف من خلال ديوان " اللؤلؤة " الذي اخترته كمدونة لهذه الدراسة لما في قصائده من تعالق مع النص القرءاني، حيث أفاد الشاعر من مفردات القرءان الكريم ومن تراكيبه وقصصه، وأعاد إنتاجها من جديد ليشكل لنا رؤى ودلالات وصور جديدة تعبر عن عالم الشاعر الإبداعي الخاص، فتجد نفسك أمام نص جديد وصور مبتكرة مختلفة عن التصوير القرءاني ومعبرة عن فكر الشاعر وخياله الواسع وفلسفته الخاصة .

Summary:

The Holy Qur'an is still a miraculous text because of its rhetoric, eloquence and magic. It has had a clear and significant impact on the poetry of Othman Loucif through his collection of poems named : « Al-loloaa » ; "The Pearl". This poetry is chosen to be studied because of the intertextual conversation between the poetry and the qurannic text. The poet used the vocabulary, syntax and stories of the Holy Qur'an in a new form to express new meaning, visions and images which constitute the special world of the creative poet, to find yourself dealing with new text and forms which are different from the Quran description and expresses the poet's way of thinking, imagintion and philosophy.

تمهيد :

في ظل زخم المناهج والنظريات والأفكار المتطورة تطورا سريعا يصعب علينا مواكبة هذه المتغيرات المتسارعة والتوقف عند كل محطة من محطاتها، ففي بادئ الأمر كان جل التركيز منصب ا على المؤلف بصفته منتج النص، لذا وُجِّهت الأبحاث والدراسات إلى حياته وأسرته وبيئته والظروف التي عاشها بغية إيجاد علاقة بين هذا السياق وبين نصوصه، واعتبرت تلك المناهج نص المبدع محطة من محطات حياته أو حادثة من الحوادث التي يعيشها فيترجمها إلى نص معتمدا على موهبته وملكته الإبداعية، وبهذا الشكل أُنهكت الدراسات النقدية وأُدخلت في مجال التأريخ والسرد والوصف لحياة المؤلف وللظروف الاجتماعية التي عا يشها والظروف الثقافية والسياسية التي واكبها وكان لها دور في التأثير عل يه وتوجيه نصوصه الإبداعية نحو سياق معين ، وبهذا الشكل أُحيط المؤلف بهالة من القدسية وجُعل محور الدراسة الأهم على حساب النص ، أتت بعدها مناهج ما بعد الحداثة لتنقض ما بنته المناهج السياقية مناديةً بموت المؤلف ومحولةً محور البحث والتركيز إلى النص كونه هو الثمرة والجوهر والقيمة التي يجب البحث فيها بعيدا عن المؤلف وحياته ومواقفه وتاريخه، في حين نجد مناهج نقدية معاصرة أخرى نقلت البحث من النص إلى القارئ وفعل القراءة وقدرتها على تحليل النصوص وتأويلها . إن كل هذه المناهج الحديثة والمعاصرة لا تبتعد كثيرا عن النص كونه المادة الخام للبحث والتحليل والتفسير، وقبل حديثنا عن التناص القرءاني في ديوان اللؤلؤة للشاعر عثمان لوصيف لا بأس أن نحدد مفهوم التناص.

المفهوم اللغوي للتناص :

التناص في لسان العرب لابن منظور هو الاتصال " يقال هذه الفلاة تناص أرض كذا وتواصيها أي تتصل بها"[1]، وفي موضع آخر بمعنى المنازعة والتباري وذلك في حديث عائشة، رضي الله عنها: " لم تكن واحدةٌ من نساء النبي، صلى الله عليه وسلم، تُناصِيني غير زَيْنَبَ أَي تُنازِعُني وتباريني، وهو أَن يأْخذ ك ل واحد من المُتنازعين بناصِيةِ الآخر." [2] فالتناص لغة هو الاتصال والتقابل، والمعنيان لا يبتعدان عن مفهوم التناص، فالنصوص تتصل ببعضها البعض وتتنازع وتتداخل وتتقابل داخل النص الأدبي الجديد .

المفهوم الاصطلاحي للتناص :

مصطلح التناص من المصطلحات المعاصرة التي ظهرت وتبلور مفهومها بعد ظهور الدراسات البنيوية والأسلوبية وما بعدها، ولم يتفق الدارسون حول مصطلح موحد فيما بينهم، فهناك من يطلق مصطلح " التناص" وهناك من يفضل " "النصوصية" وآخرون يطلقون مصطلح " التعالق النصي" وآخرون يفضلون مصطلح " المتعاليات النصية "، لكن مصطلح التناص يعد أشهرها وأكثرها تداولا واستعمالا من طرف النقاد.

إن النص الأدبي ليس عالما منغلقا على نفسه، بل هو امتدادات عميقة في سياقات خارجية وداخلية مختلفة محيطة به ومتعالقة معه، والنص المعاصر هو الآخر نص منفتح على كل النصوص القديمة والحديثة ومتفاعل معها، يؤثر ويتأثر، وجوهر التناص هو استحضار تجارب الآخرين ودمجها في النص، حيث يحيلك النص إلى

شخصيات ونصوص وأفكار وفلسفات مختلفة تتداخل لتندمج مع تجربة المبدع الفنية الطاغية في نصه، فيتبدى لنا النص عملا مستقلا بذاته يعبر على تجربة المبدع الخاصة به والتي لا تتشابه مع أي تجربة أخرى رغم ما في النص من تعالق مع سياقاته المختلفة .

وتعد الناقدة البلغارية جوليا كريستيفا (Julia Kristeva) هي أول من صاغت مصطلح التناص في الستينات من القرن العشرين، وبعدها تناوله كل النقاد بالدراسة والشرح والتعقيب، ورغم كل ما كتب فيه إلا أنه لا يزال من المصطلحات العائمة الشفافة المرنة، لكننا سنورد أهم المفاهيم التي حاول أصحابها الوصول إلى جوهر المصطلح وحدوده المعرفية، فهذا رولان بارت (Roland Barthes) يورد كلاما يتحدث فيه عن التناص فيقول: " إن كل نص هو نسيج من الاقتباسات والمرجعيات والأصداء، وهذه لغات ثقافية قديمة وحديثة ... وكل نص(الذي هو تناص مع نص آخر) ينتمي إلى التناص، وهذا يجب ألا يختلط مع أصول النص، فالبحث عن مصادر النص أو مصادر تأثيره هـ و محاولة لتحقيق أسطورة بنوة النص مجهولة المصدر ولكنها مقروءة ، فهي اقتباسات دون علامات تنصيص"[3]، والشيء البديهي هنا أن النص مولّد من نصوص أخرى، وإبداع المبدع يكمن في مدى مواراة تلك النصوص الغائبة ليتبدى لنا النص وكأنه نص جديد لم يسبق لنا نحن القراء أن قرأنا ما يشابهه أو يوازيه.

إن العمل الأدبي في رأي عبد الغذامي " يدخل في شجرة نسب عريقة وممتدة تماما مثل الكائن البشري، فهو لا يأتي من فراغ كما أنه لا يفضي إلى فراغ، إنه نتاج أدبي لغوي لكل ما سبقه من موروث أدبي، وه و بذرة خصبة تؤول إلى نصوص تنتج عنه " [4] وبهذا المفهوم يكون النص عبارة عن مجموعة من النصوص في شكل جديد كما المولود الجديد الذي يحمل صفات مختلفة ورثها عن آباءه وأجداده ولكن تبقى له شخصيته التي يتميز بها، ويواصل الغذامي حديثه عن جذور التناص في نقدنا العربي القديم، "فالمعارضات الشعرية التي يستدعي بعضها بعضا وكذلك النقائض والاقتباسات والتضمينات وما يسميه الأوائل بالسرقات الأدبية وما يسميه الجرجاني بالاحتذاء هو كله (تداخل نصوص) ، فالنص يدخل على نصوص أخرى تسبقه فيكون نتيجة لها وأخرى تلحق به فتكون متولدة عنه، وهو بينها حلقة في سلسة طويلة بدأت في الماضي السحيق الذي لا ندرك إلا بعضه ...فالنص إذن بنية مفتوحة على الماضي مثلما أنه وجود حاضر ويتحرك نحو المستقبل" [5]، فمفهوم التناص لا يعد غريبا وجديدا ومستحدثا على نقدنا العربي، بل إن معناه وجوهره قد تداولته كتب النقد العربية القديمة ولكن بمسميات أخرى وبمنظور مختلف .

ويورد محمد مفتاح مفهوما للتناص والذي هو عبارة عن " تعالق (دخول في علاقة) نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة"[6]، وهذا المفهوم هو المتداول في النقد الغربي، لأن جوهر نظرية التناص هو تداخل النصوص وتعالقها، ويرى محمد مفتاح أن " التناص ظاهرة لغوية معقدة تستعصي على الضبط والتلقين، إذ يعتمد في تمييزها على ثقافة المتلقي وسعة معرفته وقدرته على الترجيح مع الاعتماد على مؤشرات في النص تجعله يكشف عن نفسه ويوجه القارئ للإمساك به" [7]، فالتناص هو ذالك التشابه الحاصل في أي جزء من أجزاء النص مع

نصوص أخرى، وبهذا يصبح التناص من النظريات المستعصية على القارئ الذي لا يملك اطلاعا واسعا على النصوص الأدبية المختلفة.

مفهوم التناص القرآني:

لا طالما كان القرءان الكريم مصدرا ملهما للشعراء والأدباء منذ العصر الإسلامي الأول، كيف لا وهو الذي سحر العقول والقلوب بلغته وببلاغته وبتصويره الفني المعجز، وقد شهد بذلك بلغاء قريش وفصحاؤها فهذا الوليد بن المغيرة حين طلبت منه قريش أن ينكر القرءان الكريم الذي نزل على الحبيب المصطفى فقال ": وماذا أقول؟! فوالله ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته ..."[8]، إن القداسة التي يتميز بها نص القرءان الكريم جعلته أهم مصدر من مصادر التناص في الشعر العربي إلى جانب بلاغته وبيانه ، فالشاعر يسعى- باستدعاء النص القرءاني – إلى إعطاء مصداقية وقيمة لنصه، "ويكاد لا يخلو خطاب شعري حداثي من استدعائه وامتصاصه – على نحو من الأنحاء – ويصل الامتصاص إلى درجة الذوبان حتى نكاد لا نفصل فيه بين الخطاب الحاضر والخطاب الغائب نتيجة لكثافة الاستدعاء من ناحية وامتزاجه بنسيج الخطاب الشعري من ناحية أخرى، وهو امتزاج يكاد يتخلص نهائيا من السياق القرآني"[9]، وهذا بغية الوصول إلى نص جديد بلغة أخرى مغايرة ومختلفة عن لغة القرآن الكريم، فيأخذ من القرءان بلاغته وفصاحته وصوره وسلاسة لغته التي يتشكل منها النص الجديد .

وقد سلك الشعراء في استدعائهم للنص القرآني مسلكين أولهما النقل الكامل للنص القرآني مع تغيير بسيط في الشكل والدلالة وذلك للتمييز بين النصين، والثاني النقل الجزئي وذلك بنقل جملة أو عبارة من القرآن الكريم ووضعها في سياق وبناء مختلف وهذا التناص الشكلي الجزئي كثير في الشعر المعاصر وفي شعر عثمان لوصيف، وسنحاول من خلال هذه الدراسة استخراج مظاهر التناص القرآني في ديوانه " اللؤلؤة "، وقبل ذلك نورد تعريفا موجزا للشاعر .

عثمان لوصيف :

عثمان لوصيف شاعر جنوبي جزائري، من مولود سنة 1951 بطولقة ولاية بسكرة، مدينة محافظة ومتدينة، تلقى عثمان تعليمه الإبتدائي في مسقط رأسه ثم انتقل إلى المعهد الإسلامي ببسكرة ليتحصل منه على شهادة الأهلية سنة 1970، وفي هذه المرحلة حفظ القرآن الكريم خلال العطل الصيفية في إحدى مساجد طولقة، انتقل إلى المعهد التكنولوجي لتكوين المعلمين ببانتة ليشتغل بالتعليم بدءا من سنة 1971، واصل تعليمه بشكل حر ليصل سنة 1980 إلى جامعة باتنة والتي تحصل منها سنة 1984 على شهادة ليسانس في الآداب [10] ليصبح أستاذا للتعليم الثانوي، واصل دراساته العليا ليتحصل على شهادة الدكتوراه في الأدب العالمي سنة 2016 من جامعة السانية بوهران بعد إنجازه أطروحة بعنوان: "التجربة الشعرية عند "ج. ن. ارتور رامبو"، ليعين أستاذا

جامعيا بقسم اللغة العربية بجامعة المسيلة . توفي الشاعر في 27 جوان 2018 في المستشفى بعد معاناته الصحية الطويلة، تحصل الشاعر على عديد الجوائز الوطنية والدولية، وأثرى المكتبة الجزائرية بمجموعة من الدواوين والدراسات النقدية.

من دواوينه الشعرية:

- الكتابة بالنار 1982،شبق الياسمين 1986، أعراس الملح 1988، الإرهاصات 1997، اللؤلؤة 1997، نمش وهديل 1997، براءة 1997، غرداية 1997، أبجديات 1997، المتغابي 1999، قصائد ظمأى 1999، ولعينيك هذا الفيض 1999، زنجبيل 1999، كتاب الاشارات 1999، قراءة في ديوان الطبيعة 1999، ريشة خضراء 1999، قالت الوردة 2000.

التناص القرآني في ديوان " اللؤلؤة ":

عثمان لوصيف شاعر جنوبي نشأ في بيئة متدينة ومحافظة كان لها الأثر البالغ في تكوين ثقافته الدينية وتأثره بالقرآن الكريم، كيف لا وهو الذي حفظه عن أئمة مساجدها ودرس بالمعهد الإسلامي ببسكرة، فمن الطبيعي أن نجد أثر القرآن الكريم في نصوصه الشعرية وذلك البعد الروحي الصوفي الإسلامي في عباراته وتراكيبه، وهو من الشعراء الذين يحورون النص القرآني ويمتصونه حتى لا يكاد القارئ ينتبه إلى وجود أثر هفي قصائده، وهذا هو التناص المحمود فنيا وفقهيا، حتى لا يختلط النص القرآني بالنص البشري و يضيع بين النصوص البشرية وإن تولى المولى عز وجل بحفظه من فوق سبع سماوات، وسيكون ديوان " اللؤلؤة " النص الذي سنشتغل عليه ونحاول استنباط الأثر القرآني من قصائد الشاعر.

الشاعر بدأ ديوانه بقوله عز وجل « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ» الآية رقم 17 من سورة الرعد، وفي تفسير هذه الآية نقرأ : " (فأما الزبد فيذهب جفاء) أي : لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ... (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار؛ فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك. "[11] في هذه الآية إشارة للعنوان الذي وسم به الشاعر مجموعته الشعرية " اللؤلؤة " لأنها من المعادن الثمينة التي تمكث في البحر ويظفر بها الصيادون، وقد ذكرها الله عز وجل في سورة الرحمان الآية رقم 22 حين قال سبحانه وتعالى :« يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ» وهذا في سياق التذكير بنعم الله على عباده، وللعنوان أبعاد دلالية أخرى، فاللؤلؤة هي الجمال والحب والخير، هي عيون المرأة بجمالها وسحرها رمز من رموز الحب الإلهي الصوفي، وهي كذلك رمز لما ينفتح على الشاعر من عوالم الفن والجمال والتجلي والتي لا يحس بها ولا يستوعبها إلا الشعراء.

وسنتناول ظاهرة التناص القرآني في ديوان الشاعر من خلال مظهرين : التناص مع المفردة القرآنية، التناص مع التركيب القرآني.

أولا : التناص مع المفردة القرآنية :

لا تخلو أي قصيدة عربية معاصرة من تأثير القرآن الكريم، فثقافة الشاعر لا تنبني من فراغ بل هناك تأثير كبير للثقافة الدينية التي تفرض نفسها على أسلوب الشاعر وعلى لغته وتصوراته، فمن البديهي أن نجد الكثير من المفردات التي استدعاها عثمان لوصيف من القرءان الكريم، ونذكر منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

يقول الشاعر في قصيدة حورية الرمل :

" آه!

يا كوثرَها العاشقَ

يا نهر الغزلْ

واللحون الصافيهْ

أيها الفيض الإلهي الطهور

رقرق الخمرة فوق الرمل

رقرقها .. ودعني أغتسل "[12]

وظف الشاعر مفردة " كوثرها" التي وردت في قوله عز وجل في مطلع سورة الكوثر « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» والكوثر نهر في الجنة أعطي للرسول ﷺ ولأمته، حيث يصوغ الشاعر عثمان لوصيف هذه المفردة القرءانية وفق رؤيته الذاتية وتصوره الحالم حين يصف حورية الرمل وينادي كوثرها العاشق، كيف لا وهو نهر من إبداع المحبوب، يتمنى الشاعر لو أنه يغتسل بخمرة الحب التي يرقرقها هذا الكوثر العاشق فوق رمل المعاناة والصبر.

ثم يقول :

" ظامئ للرمل

للأعماق

للجوهرة الأخرى

لنار حاميهْ "[13]

وظف الشاعر في هذا المقطع مفردة " نار حاميه" والتي نجدها في قوله تعالى : « تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً » الغاشية (04) وقوله تعالى في آخر سورة القارعة « وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11) » ورغم أن السياق في الآيتين الكريمتين هو سياق وعيد وتوعد للكافرين بالعذاب الشديد وبالنار الحامية إلا أن التصوف غير نظرة الإنسان لنار الخالق سبحانه وتعالى، فنار المحبوب تكون بردا وسلاما كما كانت كذلك على إبراهيم عليه السلام، ونار الحب تضطرم داخل قلب المحبوب وكلما زادت اشتعالا قربت لحظة الكشف والتجلي واللقاء والاتحاد لذا وظف الشاعر لفظ النار في سياق الاشتياق لها والتوق لحضنها والاتحاد معها ، أو هو ما يعبر عنه بلذة الألم التي لا يتذوقها إلا الشهداء والعارفون .

ويقول في قصيدة الشبّابة :

" ...

وأنا آية تتلظى

أنا جرس يتشظى"[14]

عندما نطالع هذا المقطع يتبادر إلى أذهاننا قوله عز وجل في سورة الليل الآية رقم 14« فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ» فاللظى صفة من صفات النار التي اختص الرسم القرءاني بذكرها، والشاعر استوحاها من القرءان الكريم ليرى نفسه آية من آيات الله تتلظى وتستعر وتشتعل ، وهي مفردة وضحت الحال التي يعيشها الشاعر والخيال الذي يصوره من اشتعال الذات إلى تشظيها وأفولها.

وفي قصيدة عرس البيضاء التي يصف فيها حبه للجزائر العاصمة يقول :

"أنت النبيذ الإلهي

أنت الحقيقة بين يدي

وأنت البراءة تفتر عن ليلة القدر "[15]

يصف الشاعر عروسه البيضاء الجزائر العاصمة في سياق صوفي، فهي الخمرة الإلهية الرقراقة وهي الحقيقة التي يبحث عنها العارف وهي البراءة التي تصدر عن ليلة القدر، وليلة القدر أخبر عنها ربنا عز وجل في سورة القدر وأقسم بها وبعظمها وقدرها وخيرها وفضلها حين قال :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)» .

ليلة القدر ليلة عظيمة تعدل ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر، وهي الليلة الوحيدة التي تنزل فيها الملائكة والروح جبريل عليه السلام إلى الأرض، وكما وصفت في السنة النبوية أنها ليلة هادئة دافئة مطمئنة، وقد وفق الشاعر في استدعاء هذه المفردة القرءانية ليصف الجزائر بالبراءة والنقاء والصفاء الذي يصدر عن ليلة القدر تلك الليلة التي تعج الطرقات فيها بالملائكة ويسطع نور المحبوب في كل الشوارع والأزقة كما هي شوارع العاصمة المضيئة ليلا.

وفي قصيدة الأغواط نجد مجموعة من المفردات المستوحاة من القرءان الكريم حيث يقول الشاعر فيها:

" عبرت ليل القبر

والبرزخَ والميزانَ والصراطْ

مستبشرًا وآمناً

لاقتنيَ الملائكُ

ومُدّت الأرائكُ

حيتنيَ الحورُ وقيل لي سلامٌ"[16]

نجد في هذا المقطع مفردات قرآنية كـ : البرزخ وا لذي ذكر في سورة المؤمنون الآية رقم 100: « وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » فالشاعر عبر ليالي القبر ومرحلة البرزخ فلاقته الملائكة ومدت تحته الآرائك والتي ذكرها الله عز وجل كذلك في آيات كثيرة كما في سورة يسين الآية رقم 56 :« هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ» وحيته الحور العين وألقى عليه أهل الجنة السلام، وقد ذكر الله عز وجل ذلك في سورة النحل الآية 32: « الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ».

والشاعر هنا يصف الأغواط حين سافر في عينيها وجمالها الفتان، أهلها ملائكة طيبون، وهي بلدة آمنة مطمئنة كطيبة أهل الجنة وكرمهم، وكل بلاد الله هي جنانه وما في الكون من جمال الطبيعة وسحرها إنما هو صورة لجمال الخالق سبحانه، ويقول أيضا :

" كاشفني المهيمن القدوسْ

رأيت ما .. رأيت

حمدته .. صليت

سألت في الجنة عن حوريتي

فكانت الأغواطْ!"[17]

وظف الشاعر في هذا المقطع لفظ المهيمن القدوس والذي استقاه من قوله عز وجل في آخر سورة الحشر الآية رقم 23:« هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » فالشاعر يستشعر عظمة الله وجلاله وجبروته بتوظيفه للفظتين فالمهيمن القدوس كاشفه و تجلى له، ليسأل بعد حمده والصلاة له عن حوريته في الجنة فكانت الأغواط تلك المدينة الجميلة الساحرة .

التناص مع التركيب القرءاني :

يستوحي الشاعر عثمان لوصيف الكثير من تراكيبه وجمله وصوره من القرءان الكريم، وسنذكر بعض المقاطع التي نرى فيها تناصا تركيبيا مع القرءان الكريم، ومنها قوله في قصيدة شاعرة:

" نمرتي!

آه ... يا نمرتي !

عسعس الليل فافترسي وجهيَ المتصوِّفَ"[18]

وظف الشاعر في هذا المقطع عبارة " عسعس الليل " والتي نجدها في قوله عز وجل من سورة التكوير الآية رقم 17: « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ » فالله عز وجل يقسم في الآية بالليل إذا أقبل وأظلم، وهي دعوة للتفكر والتدبر، والليل مدعاة للخوف والوجل لأن الوحوش تفترس فرائسها ليلا ويخشى الفرسان الأشاوس ظلمة الليل لما فيه من وحوش وعدو غدّار يصيبك بسهامه ، لذلك كان سياق القرءان متطابقا مع سياق المقطع، فالشاعر بدأه بمناداة نمرته ثم دعاها لافتراس وجهه المتصوف لأن الليل قد عسعس وأقبل، وهذا توق للانعتاق والتخلص من براثن هذه الدنيا الفانية، وكلما اشتد الألم وتعاظمت المصائب كلما دنت لحظة الانفراج والحرية والسعادة الأبدية فالدنيا سجن المؤمن .

وفي قصيدة الشبابة يقول عثمان :

" من معين الطفولة أنهل

من وحي شبّابة أشعلتني وطارت

وما قتلوها

وماصلبوها

ولكنها شبهت للعيون

آه ! شبّابة في لظاها تلقيت سحر الإشارة

وعلى جرحها المتفتح صليت لله

ثم حملت البشاره "[19]

في هذا المقطع الشعري يصف الشاعر حاله المنبثقة من معين الطفولة ومن وحي شبّابة أشعلته وطارت، والشبّابة هي مزمار من القصب يستعمله الراعي للترويح عن نفسه وكسر الوحدة التي يعيشها، ثم يتحدث الشاعر عن الشبّابة التي ما قتلت وما صلبت ولكنها شبهت للعيون، وهذا التركيب مماثل لما فعل بالمسيح عليه السلام في قوله عز وجل من سورة النساء الآية 157 « وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا »

في هذه الآية الكريمة يخبر المولى عز وجل عن المسيح بن مريم والذي يؤرخ اليهود بأنهم قتلوه ويقر بذلك المسيحيون، ليخبر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بأن اليهود لم يقتلوا المسيح ولكن شبه لهم قتله، ويستدعي عثمان لوصيف هذا النص القرءاني ليشبه الشبّابة بالمسيح، فهي التي أشعلت فيه نار الحب والعشق، صوتها الحزين تعبير عن أنين العاشق واكتوائه بنار الفراق، وفي المجتمعات المتدينة – كطولقة على سبيل التمثيل – تعد الشبابة منبوذة دينيا وأخلاقيا فهي من مزامير الشيطان عند بعض المتدينين، ومجمع السكارى والمتشردين، وكأني بعثمان هنا ينتصر لها ولروحها ولبراءتها، ويرى فيها الطهر والحب والصفاء والشوق والحنين.

ثم يواصل الشاعر تناصه مع العبارة القرءانية حيث يقول في نفس القصيدة:

" أصلي لعينين ملء السماوات والأرض

عينين ألهمتاني صبيا

وتيمتاني نبيا "[20]

في هذا المقطع يستدعي الشاعر الآية رقم 12 من سورة مريم « يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» حيث يرى الشاعر في نفسه مقام النبوة الصوفية، فهو يصلي لعينين صوفيتين ألهمتاه و تيمتاه حتى صار عاشقا، وكما أوتي النبي يحي عليه السلام الحكم والنبوة وهو في صباه أوتي الشاعر كتاب الحب والعشق وفصلت له آياته وهو لا يزال صبيا، والشعراء يرون أنفسهم أنبياء عصورهم والصوفي يرقى في مدارج العارفين حتى يبلغ ما لم يبلغه الأنبياء والمرسلون كما هو موجود في كتبهم.

وفي قصيدة آيات صوفيه يبدع الشاعر في تصويره لحالة من حالات التجلي التي تنتابه حيث يقول :

" هابط أرضك المستكنة في رعشة السهو

أفتح في روضة الأبدية دربي

وأدخل مملكة الله

أخلع نعلي

أمشي عن التوت والأقحوان السماوي

أوغل في غبش الصلوات وأهتف باسمك

أدنو من العرش

ألقاكِ .. يا امرأتي المستحمة بالنور

أطلق عصفورة الناي

أقرأ تعويذة العشق

أرفع عن وجهِك القدسي الحجاب

وأسجد عند التجلي

في السجود أراكِ"[21]

يستدعي الشاعر قصة موسى عليه السلام والتي ذكرت في سورة طه الآية رقم 12 و13 « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى » فموسى عليه السلام أمر بخلع نعليه تواضعا وتعظيما لتلقي الرسالة الإلهية في الوادي المقدس بسيناء، يحاول عثمان لوصيف استلهام ما في الآية من قدسية وتعظيم في وصف حالة التجلي التي تنتابه، فهو الذي نزل أرض امرأة لدنية مستحمة بالنور الإلهي دخل مملكة الله ، وخلع نعليه ودنا من عرش الرحمان وسجد عند التجلي ورآها في السجود، وهو هنا يستدعي ما حدث للحبيب المصطفى ﷺ في قصة الإسراء والمعراج في سدرة المنتهى حين دنا من العرش وتلقى تكليف أمته بالصلاة، لكن عثمان هنا بمكاشفته الصوفية تجاوز مقام النبوة فموسى عليه السلام طلب من ربه أن يراه، ولم يكن له ذلك، لكن عثمان هنا رأى الذاة الإلهية في سجوده ورأى وجهها القدسي حين رفع عنها الحجاب وهنا تكمن جرأة الشعراء الذين يتجاوزون كل الحدود والحواجز ليعبروا عن رؤاهم وتصوراتهم بالشكل المبدع

المذهل والغريب من جهة، ومن جهة أخرى ما يؤمن به المتصوفة من قدرة الصوفي على تخطي كل الحدود والحجب التي لم يتجاوزها الأنبياء والرسل عليهم السلام.

وفي قصيدة تسبيحة البحر التي يقول فيها الشاعر :

" آه ، عيناكِ مغرَقتان

ويُغري الكَحَلْ ..!

آه ، آه . . هو البحرُ

لا عاصِم اليوم ، أين الجبلْ ؟!

كان أن برعم اللوزُ بين الروابي

ومغمغم فرخ الحجلْ

كان أن عرّش الياسمينُ

وسال العقيقُ على كل تلْ

كان ما لم يكن قد حصلْ!

ختم البحر آياته

فاستوى الكون حتى اكتملْ "[22]

يستلهم الشاعر في هذه القصيدة قصة نوح عليه السلام مع قومه في سورة هود الآية رقم 43 و 44 : « قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (44) » في هذه الآية يخبر رب العزة عن أعظم حدث مر على الأرض وهو إغراق كل من كان على الأرض في الطوفان العظيم ونجا منه نوح عليه السلام وذريته الذين عمروا الأرض من بعده، ويحاول الشاعر هنا استلهام هذه القصة لما فيها من بعد ديني مقدس ليصف بحر الحب الذي يغمر كيانه فلا عاصم منه ولا جبل، البحر هنا عم كل الأرجاء طربا وعشقا وجمالا فاستوى الكون حتى اكتمل باتحاد المحب مع محبوبه، وكأني بالشاعر يعبر عن حالة من حالات الكشف التي كان وقعها على قلبه وروحه أعظم من وقع الطوفان العظيم على المغرقين في زمن نوح عليه السلام .

وفي قصيدة الممرّات يصف الشاعر عثمان لوصيف مدينة باتنة حيث يقول :

" وباتنة تتوضأ بالشمس

باتنة تتلألأ عشقا

وتنعس بين جداول من خمرة ولبن "[23]

يذكرنا هذا المقطع بقوله تعالى واصفا جنته وما أعده للمؤمنين في سورة محمد الآية رقم 15 :« مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » .

يحاول عثمان لوصيف تشبيه باتنة بالجنة في جمالها وخضرتها ومائها وخير أناسها، فهي مدينة الجهاد والتضحية ومدينة العلم والعلماء، مدينة تتوضأ بنور الشمس وتكتوي بنارها لتنصهر فتنتج روحها من جديد، مدينة تتلألأ عشقا وحبا، تنعس وتهدأ وتلين بين أنهار من خمرة ينتشي بها روادها ومحبوها وأنهار من لبن صاف، فالخمر لا طالما كانت ملاذ الإنسان المهموم الحزين وحتى بعد تحريمها يعد الله المتقين بخمر الجنة التي لا يصدع من شربها المرء ولا ينزف كما هو الحال في خمر الدنيا، بينما كان اللبن رمزا للفطرة والصفاء والخير والبركة .

وفي قصيدة أمير النوارس يقول الشاعر :

"يا أمير النوارس يا فارس المعجزاتْ

كل نجم هوى

كل سهم غوى

كل معشوقة هجرتكَ ولا زلت وحدك تجتاح هذا القتامَ "[24]

يصف الشاعر أمير النوارس تلك الطيور المهاجرة المغتربة ويصف ما يجري حولها من نجوم وأجرام متساقطة وأسهم متلاشية، وهذه الصورة استلهمها الشاعر من قوله عز وجل في مطلع سورة النجم : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (2)» رغم أن السياقين مختلفان إلا أن الشاعر أراد تعظيم أمير النوارس، فالنجم الذي أقسم الله به يهوي وينتهي ويتلاشى ويظل أمير النوارس صامدا حزينا متألما ومشتاقا والذي يعبر عن

روح الشاعر المتألمة والعاشقة الحزينة، فالنجم رمز النور والضياء يهوي وينتهي، والسهم رمز الألم والغدر والخيانة، فالخير انتهى والغدر بل مبتغاه ويظل أمير النوارس بعد الهجر متألما حزينا في ذلك الظلام الدامس.

ثم يقول :

" لست ربا .. ولكنه الكون بين يديكَ

تصرفه كيف شئتَ

وتجري الرياح بأمركَ حيث تريد "[25]

وهذه الصورة ذكرت في القرآن الكريم في الإخبار عن النبي سليمان عليه السلام وما سخره الله له في سورة ص الآية رقم 36: « فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ».

فالشاعر يصف أمير النوارس في لحظة من لحظات التأمل الصوفي حيث يتحد الكون بأسره ليكون تحت أمره ورغبته .

وفي قصيدة الرجيم يستدعي فيها الشاعر قصة إبليس الملعون في الجنة حيث يقول :

" أترك الفردوسَ

أخرجْ

إنما أنت رجيمْ

آبقٌ ، أعمى ، غبيْ

آه !

لا ، لا ..

إنما أنتَ نبيْ

أيها البدويْ!

إنما أنت صبيْ

أخطأ الجنةَ عفواً

فاصطلى نار الجحيمْ!!"[26]

في هذا المقطع يستقرئ عثمان لوصيف قصة إبليس في الجنة التي ذكرت في آيات كثيرة ومنها قوله عز وجل في سورة الحجر:« قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ».

الشاعر أعاد تصوير مشهد إبليس في الجنة بصورة مبدعة ومغايرة، فهو هنا كأنه يصور لنا العالم المتناقض في أحكامه وتصوراته فتارة تُبدَّع وتُسَب وتُرجم وتارة أخرى تُقدس وتُرفع .

وفي قصيدة أغنية الحب يقول الشاعر :

" أرتل قرآن الحب

أفصله آياتْ

وأقول:

سلام للعينين .. سلام للشفتين

سلام للوجنات .."[27]

الشاعر هنا يرتل قرءان حبه وعشقه آيات مفصلات، وكأنه يستلهم قوله عز وجل في بداية سورة فصلت : « حَمِ (1) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) » ثم يسلم على العينين والشفتين والوجنتين، كما سلم المولى عز وجل على أنبيائه في سورة الصافات الآيات 79 و 109 و 130 : « سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (79) » « سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (109) »

« سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (130)»

وهذا هو تصوير الشعراء المبدعين حين ينهلون من القرآن الكريم ومن بلاغته وأسلوبه وسحره وقدسيته .

إن قصائد عثمان لوصيف في ديوان " اللؤلؤة " زاخرة بالتناص القرءاني، فالشاعر تشرب القرءان الكريم منذ صباه وتدبره وفهم مقاصده وأبعاده الدلالية، فوظف لنا النص القرءاني توظيفا مبدعا ممتصا للنص المقدس، حيث لا نكاد نتفطن لوجود تناص مع القرءان الكريم إلا بالقراءة الجيدة الممحصة للقصائد، وهذا التوظيف كان خادما ومقويا لمعاني الشاعر وصوره، حيث استنبط الشاعر دلالات جديدة وتراكيب لغوية مبتدعة منطلقا من النص القرءاني وصولا إلى عالم شعري وتصويري جديد خاص.

المصادر والمراجع:

1- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري : لسان العرب، ج 15 ، ص 328.

2 – نفس المرجع، نفس الصفحة.

3 – أحمد الزغبي: التناص التاريخي والديني– مقدمة نظرية مع دراسة تطبيقية للتناص في رواية "رؤيا" لهاشم غرايبة، مجلة اليرموك، مج 13، ع 1، إربد الأردن، 1995، ص 170–171.

4 – عبد الله محمد الغذامي: ثقافة الأسئلة مقالات في النقد والنظرية، دار سعاد الصباح، ط 2، 1993، ص 111.

5- نفس المرجع، ص 113.

6- محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 1992، ص 121.

7 – نفس المرجع، ص 131.

8 – ينظر محمد الجيلاني حمزة، الإشراق الإسلامي، الشركة التونسية للتوزيع، (د . ط)، 2001، ج 2، ص 238.

9- حصة البادي، التناص في الشعر العربي الحديث، ط1، 2009، دار كنوز المعرفة العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، ص 40.

10- ينظر في المعجم، مؤسسة جائزة الملك سعود البابطين للإبداع الشعري، موقع إلكتروني بتاريخ 2016/12/13 .

Http://www.albabtainprize.org/Encyclopedia/poet/1079.htm

11- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1999، الرياض،ج4 ، ص 447–448.

12 – عثمان لوصيف، اللؤلؤة، 1997، دار هومه، الجزائر، ص 8.

13 – نفس المرجع، ص 8.

14- نفس المرجع، ص 15.

15 – نفس المرجع، ص 31.

16- نفس المرجع، ص 62.

17 – نفس المرجع، ص 63.

18- نفس المرجع، ص 14.

19- نفس المرجع، ص 16.

20- نفس المرجع، ص 17.

21- نفس المرجع، ص 20.

22- نفس المرجع، ص 40.

23- نفس المرجع، ص 59.

24- نفس المرجع، ص 68.

25- نفس المرجع، ص 69.

26- نفس المرجع، ص 73.
27- نفس المرجع، ص 74.